من ابلغ ما كتبهُ ولا اننا توخَّينا في نقلهِ اظهار بلاغة الافرنج . ولذلك لم يصب حضرة احمد افندي كامل في التمثل بما ترجمناهُ عنهُ . وسننشر في الاجزاء التالية ترجمات تظهر بلاغة الافرنج باجلى بيان . وحبذا لو يتحفنا الكتَّاب الكرام بكل ما لديهم من هذا القبيل

رواية تنكرد

الفصل السادس

لا تصير الاخلاق ملكات راسخة في النفس الاَّ في سن معلوم يختلف باختلاف الميل الفطري . ولم يكن تنكرد قد بلغ هذا السن ولكنَّ ميلهُ الفطري كان شديدًا فكان كثير العزلة كثير التأمل كما تقدَّم فاقرَّ على امور همَّم نيتهُ على بلوغها مهما كلفتهُ من المشاق . وقد عمل بما طلب منهُ والداهُ لانهُ كان شديد الطاعة لهما بالفطرة ولكنهُ لم يرَ في محافل الانس التي القياهُ فيها شيئًا يسرُّهُ ويلائم طبعهُ فكنتَ تراهُ صامتًا ينظر الى الناس ولا يسرُّ برؤيتهم لانهُ يجدهم بعادًا عن البساطة مكثرين من التعجُّب يلاقي بعضهم بعضًا فيتكلمون جملاً قصيرة مبتورة كأنهم في شغل شاغل ولا شغل لهم وكلٌّ منهم باسمٌ لا عن سرور بل عن تصنُّع . ولا اجهل ممَّن يظن الابتسام شرطًا لازمًا لارضاء غيرهِ . فكم من امرئ تراهُ باسمًا كالليث حين يبدو نابهُ وكم من وجه عبوس يبدو عليهِ الابتسام لحظة من الزمان فيخجل الالباب لانهُ يعرب عن سرور اكيد . وكان تنكرد من هذا القبيل وقد ورث ذلك عن امهِ فانها امرأة فاضلة رزينة اذا سرَّها شيء بدت دلائل السرور في وجهها فزادتها جمالاً على جمال لكن ابتسامها نادر مثل حلاها

لما جاء تنكرد الى الحفلة الراقصة التي مرَّ وصفها في الفصل السابق لم يكن ينتظر ان يجد فيها شيئًا يسرهُ لان فؤادهُ كان مشغولاً بالتفكير في مدائن المشرق ومفاوزهِ وما فيهِ من الانهر الاودية . وكان خجولاً بالطبع فلما نودي باسمهِ حين دخول الدار على جاري العادة في بيوت الكبراء وانتقل اسمهُ من فم خادم الى فم خادم آخر كأنهم اصداء بعضهم لبعض كاد يذوب خجلاً ولولا الشمم وعزَّة النفس لانقلب راجعًا على عقبهِ . ولكن لم يمضِ عليهِ عشر دقائق في تلك الدار حتى طلب من تلقاء نفسهِ ان يتعرَّف بسيدة من السيدات اللواتي كنَّ فيهِ . وهي اول مرة طلب فيها ذلك في حياتهِ . ثم لما عاد الى بيتهِ عاد وفي اذنهِ صوت يطربهُ وفي ذهنهِ صورة يسرُّ بها . ولما وقف ليخلع ثيابهُ قبل نومهِ طال وقوفهُ وهو يفكِّر في ما مرَّ عليهِ

تلك الليلة. ولما اتى خادمهُ ليوقظهُ في الصباح جاء برقعة من مسز فلونسي تدعوهُ فيها الى الغداء في بيتها الساعة الثالثة بعد الظهر. فاخذ الورقة ونظر اليها وكأنَّ حروف الكتابة التي فيها اجتمعت بعضها مع بعض وصوَّرت لهُ صورة لادي كونستانس. فقال في نفسهِ لا بأس بالذهاب لاني ارى هناك لورد فترهون فاستفيد منهُ كثيرًا عن النحوت فاسر ان تعدَّ مركبتهُ في الساعة الثالثة

ولم تكن مسز فلونسي منذ عشر سنوات لتُذكر بين نساء الكبراء كما هي الآن لكنها توخَّت الظهور بين الناس فحازت بهِ كما فاز الانكليز في تغلبهم على بلاد الهند. والذين يتوخون ذلك كثار ولكن الذين يحرزون الفوز قلال او يكون فوزهم ناقصًا فلا يبقى لهم الاَّ اذا انفقوا عليهِ النفقات الطائلة كما فعل الفرنسويون في بلاد الجزائر. ولم يكن زوجها من ذوي الثروة الطائلة بل كان دخلهُ السنوي نحو سبعة آلاف او ثمانية آلاف من الجنيهات وهذا دخل معتدل عند كبراء مدينة لندن لكن زوجتهُ كانت مدبرة والقليل مع التدبير كثير كما ان الكثير مع التبذير قليل. وزد على ذلك انهُ لم يكن لهُ اولاد فصار دخلهُ كافيًا للظهور في مظاهر الاغنياء الكبار. وسار سيرة اهل الوجاهة في قضاء الوقت بالصيد والقنص واللعب متَّبعًا مشورة زوجتهِ لانها اقنعتهُ ان ذلك هو السبيل الوحيد للتعرُّف بكبراء القوم والجري في خطتهم. ولم يكن ماهرًا في شيء من ذلك لكنهُ كان يعرف منهُ ما يرفعهُ عن ان يكون هزءًا عند الذين زجَّ نفسهُ بينهم. وكان مع ذلك حذورًا منهم اذا طلب احد منهُ ان يقرضهُ بضع مئات من الجنيهات او ان يكفلهُ على بضعة الوف لم يردَّ طلبهُ بل قال انهُ مستعد لكل خدمة من هذا القبيل وكتب الى مدير البنك الذي فيهِ دراهمهُ او الى المحامي الذي يدافع عن حقوقهِ كتابةً تحكمة تأول اخيرًا الى انهُ لا يقرض شيئًا ولا يكفل احدًا ويبقى متفضلاً على الرجل القديم طلب منهُ القرض او الكفالة. فاشتهر بين اقرانهِ بانهُ من الممدوحين الليني العريكة ولكن لو اجهد مادحوهُ قريحتهم حتى يجدوا لهُ عملاً واحدًا يستحق عليهِ المدح ما وجدوا. فلم يكن بالرجل النافع ولا بالرجل الضار. والناس مقلدون في حكمهم على غيرهم لا يحققون فاذا اتى احدٌ ان يعطي اموالهُ لرجل مبذر متلاف وذهب هذا يطعن عليهِ ويصفهُ بالشح والبخل نقلوا الوصف عن لسانهِ واذاعوهُ بين الملا. واذا اشبعهُ بالمواعيد الفارغة والتدليس فقالوا هذا عنهُ انهُ كريم لين العريكة ذاعت شهرتهُ كذلك ولو لم تكلفهُ شيئًا

وكان المستر فلونسي يدعو الكبراء للغداء عندهُ فتقابلهم زوجتهُ وترحِّب بهم حتى اذا كان لهم زوجات قابلتهنَّ وصاحبتهنَّ فيشمخنَّ عليها في المقابلة الاولى واذا دنَّ رأينها مرةً او

مرتين احبيتها وسررن بصحبتها . وكانت هي وزوجها لا تقيمان في لندن الا فصل الشتاء فخالما يمضي بمضيان الى كوس ثم الى حمامات المانيا ثم الى باريس ثم الى ضواحي لندن ثم يعودان الى لندن مثل اعظم عظماء الانكليز . وكثيرًا ما كانا يلاقيان المصاعب في الوصول الى العظماء ولكن الصبر موهبة كبيرة كما قال العالم بفون الشهير ومن صبر ظفر . واتصلا من ايام الولائم الى اقامة الحفلات الراقصة (البالو) فصار العظماء يترددون على بيتهما واستأجرا لوجًا في الاوبرة كانا يدعوان اليه خصومهما ليرشياهم به ويتخلصا من شرهم او يكسبا شكرهم على شرط ان يكونوا من العظماء

والحفلات الراقصة ليست بالامر السهل فانها تقتضي دارًا رحبة واثاثًا فاخرًا ونفقات كثيرة على الطعام والشراب واناسًا من العظماء يلبُّون الدعوة . وهب انك وجدت كل ذلك يبقى عليك تعيين اليوم الذي لا يعارضك فيه احد . فهب انك اعددت بيتك وهيأت انفر انواع الطعام والشراب وارسلت اوراق الدعوة وعينت الليلة والساعة وقبل الميعاد باربع وعشرين ساعة ارسلت الاميرة الفلانية اوراقًا تدعو فيها العظماء الى ليلة حافلة اقامتها اكرامًا للملك زار البلاد وكان زوجها سفيرًا في بلاطه اضطررت ان ترسلي وتخبري كل الذين دعوتهم انك اخرتي ليلتك الى وقت آخر ولو كنت تعلمين انهُ ما من احد يلبي دعوتك من الذين دعتهم تلك الاميرة . ثم تعلنين ذلك في الجرائد اليومية وتعينين ليلةً اخرى وقبل ان تحين تأتيك دعوة الى ليلة راقصة عند الاميرة فلانة في الليلة التي عينتها وانت وكثيرات مثلك يفضلن ليلتها على ليلتك فتضطرين ان تعدلي عن عزمك وتتركي الليلات الراقصة الى اربابها . ولذلك لم يكن نجاح مسز فلونسي في اعداد الليلة الراقصة بالامر السهل ولاسيما لما تمكنت من دعوة احدى الاميرات من بيت الملك الى دارها فشرَّفتها بحضورها وسرَّت بما شاهدت واقامت نصف ساعة اكثر مما كان ينتظر منها . وحضر تلك الليلة كثيرون من العظماء والسفراء وزوجاتهم ومن ثمَّ صارت مسز فلونسي تدعى الى كل الليالي الراقصة وأُدرج اسمها في قائمة المدعوين اليها

الفصل السابع

لما جاء تنكرد الى الغداء عند مسز فلونسي وجد البيت والحديقة التي حولهُ مزدانين اخر زينة وفيهما جمهور كبير من نخبة العظماء ولم تكن هذه السيدة ترغب في لقاء احد اكثر مما ترغب في لقائهِ لكنها كانت ماهرةً في امتلاك طبعها حتى لا تُظهر ما فيها من الرغبة . ولم تنل هذه المهارة الا بعد المزاولة الطويلة اما في اول ظهورها والتقائها بالعظماء فكانت تظهر من

الرعشة والإعجاب ما يُضحك الناس عليها . وهذا اول غداء دُعي تنكرد اليه فسرَّ بما رأى لا سيما بمنظر الحديقة وما فيها من الخمائل الغناء والادواح الغبياء والفساقي والمجاري وما رآهُ من الجمال الرائع بين ربات الحسن والدلال

على مَ يمضي هذا الفتى الى اورشليم وما شأنهُ والشعائر الدينية والحقوق السياسية وهو من القوَّة والجاه والثروة في المقام الاسمى ولهُ عقل راجح فيستطيع ان يستفيد من هذه المزايا . أوَ ليس ذلك حسبهُ . وهبْ انهُ وصل الى اورشليم سالمًا فما عساهُ ان يجدهُ فيها مما يتوخاهُ فانها مدينة حقيرة في بلاد تكاد تكون قفرًا . أنما يستطيع اهل الازياء وارباب الجاه والوجاهة ان يقنعوهُ بالعدول عن هذا السفر . وقد بذل والداهُ جهدهما في منعهِ فلم يفلحا ولم تجُفَّ دموع امهِ دون مرامهِ ولكن " قد يفعل الحبُّ ما لا يفعل الدمعُ " . فلننظر فعلهُ في هذه النوبة .

لقي هناك لادي كونستانس فسرَّت برؤيتهِ وسرَّ برؤيتها . واسمع ما جرى بعد ذلك

قال لورد اسكدايل لدوقة بلامنْت ام تنكرد "كذا يتحدثون" وكانت الدوقة تنظر اليهِ نظر الدهشة والاستطلاع . " فقد طلب من سنت بترك ان يعرفهُ بها في بيت دلورين ورقص معها وقد شغلتهُ عن اليخت "

فقالت الدوقة "ما كنت اودُّ الاَّ ان تكون كاترين ابنة اخي "

فقال " اصبري وسيتعرَّف بكثيرات مثل هذه ومثل تلك فيلا يرسو على واحدة والتعرُّف بواحدة ليس شيئًا في ذاتهِ ولكنهُ يدلُّ على ما انبأتُك بهِ وهو انهُ متى اشتغل فؤادهُ بشيء آخر نسي اليخت والسفر "

فقالت " اصبت اصبتَ وانتَ مصيب دائمًا "

وكان لورد اسكدايل خبيرًا باحوال الرجال لكن تنكرد لم يكن مثل الشبان الذين خبرهم لان التجارب لم تعلمهُ كيف يتقي المخاطر فكان عرضةً للوقوع في اشراك الهوى التي لا يقع فيها من اعتاد خوض المنايا من شبان عصرهِ . وشهامة نفسهِ تأبى عليهِ ان يرى فتاةً تحبهُ وهو يعرض عنها

وكانت لادي كونستانس على جانب كبير من الظرف قرأت كثيرًا من الروايات الفرنسوية ورسخ في ذهنها كثير من الامور التي لا يسلم كل احد بها او تأباها نفس الحرّ فكان تنكرد يسرُّ بحديثها ولكنهُ يتألم اذا ذكرت شيئًا لا يتوقع ذكرهُ من فتاة مثلها وينسب ذلك الى عشراتها الذين يودُّ ان يبعد عنهم ويبعدها ايضًا . وفُتنت هي بجمال طلعتهِ ورقة حديثهِ وذكاء عقلهِ وطهارة قلبهِ وامتيازهِ على كل اترابهِ . وكانت طلعة المحيا بعيدة عن التصنُّع فلم تستطع ان

تخفي حبها لهُ وارتياحها الى رؤيته وسلكت معهُ سلوك فتاة حصينة شريفة المبادىء عالية النسب . وزارها في بيت ابيها بعد ان لقيها عند مسز فلونسي فرحبت به امها وكانت هي تكتب مكتوباً فرحبت به ايضاً بكلمتين وعادت الى كتابة المكتوب فجلس الى امها واخذ يكلمها في شؤون غير هامة وهي تساعدهُ على الجري في الحديث لانهُ لم يكن طلق اللسان على ما يريد . وانت لادي كونستانس كتابة المكتوب وسلمتهُ للخادم وبقيت جالسة في مكانها بعيدة عنهُ لا تسمع حديثهُ لتشاركهُ فيهِ تشعر كأن الغاية التي جاء لاجلها غير حاصلة لهُ وهمَّ بالخروج وحينئذٍ دخلت احدى السيدات زائرة فنهض واستأذن في الانصراف ولكنهُ لم يخرج من الغرفة بل مال الى لادي كونستانس وجلس اليها كأنهُ على غير قصد منهُ . فبشت في وجههِ وقالت لهُ هذه السيدة صديقة أمي الحميمة . وكأنها قالت لهُ صار يمكنك ان تحادثني الآن لانهُ دخلت سيدة تحادث امي

وبعد ان تحدثا مدة وجيزة مسكت كتاباً كان امامها وقالت لهُ أقرأت هذا الكتاب . فأخذهُ من يدها وقلبهُ ثم قرأ عنوانهُ واذا هو "انباء الفضاء" فقال كلاَّ لم ارهُ قبلاً . فقالت اني اعيركهُ اذا اردت فهو من الكتب التي يجب ان تقرأها لانهُ يفسر كل شيء واسلوب كتابتهِ حسن جداً

فقال لها ان كان يفسر كل شيء فهو من ابدع الكتب . فقالت نعم ولا بدَّ لك من قراءتهِ فقد كنت اقول ذلك في نفسي وانا اقرأهُ . فقال ان عنوان الكتاب يدلُّ على ان موضوعهُ غامض . فقالت نعم ولكن كل ما فيهِ مشروح شرحاً وافياً وموضح بالجيولوجيا والفلك فترى فيهِ كيف تكونت الكواكب — سديم كالضباب تجتمع قطع منهُ وتتكاثف كما تجتمع الزبدة في اللبن اقرإ الكتاب فتسر بهِ جداً

فقال ما من احد رأى كوكباً يتكوَّن . فقالت نعم ولكن اقرأ هذا الكتاب اقرأهُ فتجد فيهِ كل شيء مفسراً وموضحاً . ومن اغرب ما فيهِ تفصيلهُ كيفية تكوُّن الانسان وارتقائهِ فان كل شيء قد ارتقى ارتقاء . ففي البدء لم يكن شيء ثمَّ تكوَّن شيء نسيت ما هو اظن تكوَّن الجماد اولاً ثم السمك ثم الانسان ولكني لا اتذكر هل وُجد الانسان قبل السمك اوالسمك قبل الانسان وعلى كل حال ستوجد مخلوقات اخرى ارقى منا لما اجنحة — لا لا تذكرتُ الآن كنا نحن سمكاً وسنصير غربانًا . طالع الكتاب فتجد فيهِ ما يسرُّك

فقال تنكرد "لا اصدق ابداً اني كنت سمكة"

فقالت ولكنك تجد مع كل شيء برهانهُ فاقرإ الكتاب ثم احكم ويستحيل عليك ان

تناقض شيئاً فيهِ لانهُ كله علم مثبت مبرهن بالجيولوجيا وتجد فيهِ كيف تكوّنت العوالم وكيف زالت بعضها من امام بعض وما نحن الاَّ حلقة من سلسلة كبيرة كثيرة الحلق وستتكوَّن بعدنا حيوانات ارقى منا كما صرنا نحن ارقى من الحيوانات التي كانت قبلنا وقد كان لنا زعانف وستصير لنا اجنحة وهذا هو الارتقاء

فصمت وهو يفكّر في ما قالتهُ لهُ ثم نهض وودَّعها وودَّع امها وخرج وهو يقول في نفسهِ كنتُ سمكةً وسأصير غراباً ما اغرب هذه الدنيا لا بدَّ لي من الخروج من هذه المدينة باسرع ما يمكن لاني لا استطيع الصبر على ما فيها من المفاسد والاضاليل . ولكن تعرَّفي بهذه السيدة قد افادني لانني عرفت بواسطتها من هداني الى بخت يرضيني ولو كان صغيراً ولا بدَّ من ان اكتب اليهِ حالاً واخبرهُ انني قبلتُ بهِ . والتقى حينئذٍ باللورد اسكدايل فقال لهُ ان التقادير ساقتك اليَّ فقد وعدتني انك ترشدني الى خادم امين يعرف بلاد المشرق

فقال لورد اسكدايل وهل صممت على السفر ووجدت البخت . فقال نعم واتيت اذكرك بوعدك وقد انجز حرٌّ ما وعد . فقال لورد اسكدايل نعم نعم تذكرتُ الآن . فقال تنكرد ولا بدَّ من ان تتكرَّم وتساعدني في امور أُخرى اذ لا بدَّ لي من ان ترشدني الى انسان آخذ لهُ مكاتيب توصية وتحاويل مالية وما اشبه فقال اسكدايل وماذا تفعل بالكولونل والبقية وهل هم على اهبة السفر

فاجاب لقد وعدتُ ابي بان آخذهم معي وهم وعدوني انهم يكونون مستعدين للسفر في اسبوع من الزمان وسأكتب اليهم الليلة فان حضروا فبهِ والاَّ فانا في حلٍّ من وعدي

اذاً انت مسافر وقد وجدتَ بختاً واطمأنك اعتمدت على الباسلسك

نعم

ولكنهُ يحتاج الى اصلاح كثير

نعم ولكن اكثر ذلك زينة خارجية لا يهمني امرها واذا اضطررت اصلحتهُ في جبل طارق

اذاً لا بدَّ لك من رجل خبير يساعدك في السفر ومن مكاتيب توصية ودراهم . نعم لا بدَّ من ان تتعرَّف بالصيدوني نهل تعرفهُ

كلاَّ

لا بدَّ لك من التعرُّف بهِ وهو الرجل الذي يفيدك اكثر من كل انسان ولكن ما الحيلة وهو قلما يخرج من بيتهِ . — اليوم الاثنين وغداً يوم البريد فاتعشى معهُ وحدنا . سأكتب اليك يوم الاربعاء صباحاً ومن رأيي ان لا تكتب الآن الى الكولونل ورفاقهِ

الفصل الثامن ٩٠

اغرب ما في مدينة لندن اتساعها حتى يرى من فيها كأنهُ في مدينة لا حدَّ لها . وهي ليست عظيمة وليس فيها من مزايا المدن العظيمة الاَّ الاتساع اما الجمال فمحرومة منهُ . والمدن العظيمة حاوية الاتساع والجمال معاً ولكنها صارت نادرة الآن بعد رومية وبابل ومدائن الفراعنة. صارت نادرة بعد ان لم يعد الناس يهتمون بجمال المباني . والمدينة التي تشوقني العظمة الآن مدينة باريس وهي قد تكون جميلة لكنها غير كبيرة ولو كان سكانها كثيرين عدداً لانهم مزدحمون في منازلهم فيبقى نطاقها ضيقاً . والقسطنطينية واقعة في اجمل موقع طبيعي ولكن مبانيها غير فاخرة

اما لندن فابن في قلبها بناء مثل الاكروبولس والفورم[1] تجد عظمتها قد زادت عشرة اضعاف ولا شيء يدلُّ على عظمة الامم مثل مبانيها العظيمة فان قصور الملوك ودور الآثار ونحوها من المباني العمومية هي عنوان قوة الامة ودليل مجدها

ولا تخلو لندن من المباني العظيمة ولاسيما في حي التجار القديم فان التجار الذين كانوا منذ مئة سنة او اكثر كانوا يعرفون مقامهم ويبنون المنازل الكبيرة التي تفاخر قصور البندقية فخامة وزخرفة وقد هجر السكان هذه المنازل الآن فصارت بيوتاً للتجار . ومنها منزل يفصل بينهُ وبين الشارع الذي امامهُ باب كبير من الحديد المنقوش يفتح الى باحة فسيحة والمنزل قائم على جانبيها يوصل اليهِ بسلم كبير من المرمر وفي الباحة حديقة غناء في وسطها فسقية يتدفق الماء منها وترى الرجال داخلين الى هذا المنزل وخارجين منهُ وعلى وجوههم دلائل الاهتمام بامور ذات بال كانهم تلامذة في مدرسة مشتغلون بالدرس والبحث والتنقيب . هنا بيت المحاسبات حيث ينظر في اموال الملوك والممالك في اعظم مدينة يسكنها اعظم رجال الاموال

هذا الحي المعروف بالمدينة (سيتي) زارهُ تنكرد على اثر كتاب اتاهُ من لورد اسكدايل يقول لهُ فيهِ

عزيزي تنكرد — رأيت الصيدوني امس وكلمتهُ في شأنك وهو في شغل شاغل الآن لان عمهُ مات ولا بدَّ لهُ من ان يدبر الاشغال وحدهُ الى ان يأتيهِ رجل آخر من اعمامهِ او اولاد اعمامهِ . ولكنهُ قال لي ان اكتب اليك لتأتيهُ الى المدينة اليوم الساعة الثانية بعد الظهر واسم بيتهِ سكوين كورت وهو قرب البنك . ولا يصعب عليك الاستدلال عليهِ . ورأيي ان تمضي اليهِ فانهُ الرجل الذي يفهم مرادك اكثر مني ومن ابيك ويستحق ان تتعرَّف بهِ

(١) بناءان فخمان مشهوران الاول في اثينا والثاني في رومية

طي هذا سطران ارسلها اليهِ لكي لا يقع خطأ . وهو اسرائيلي فلا تكثر امامهُ من ذكر القبر المقدّس صديقك اسكدايل

ولما بلغ تنكرد عطفةً في الشارع المار امام البنك سمع اقسامًا ومشاجرات واناسًا يتشاتمون واسواطًا تضرب ثم رأى رجال البوليس وسمع صوت انكسار مركبة ومراخ امرأة فنظر من كوة مركبتهِ واذا امامهُ مركبة صغيرة بديعة الصنع كثيرة الزخرفة قد انكسر عجلها لاتطامها بعربة كبيرة وكاد سائقها يقتل . وفيها امرأة بديعة الجمال ووراءها خادمان وقد اجتمع حولها رجال البوليس فنزل من مركبتهِ وسار اليها فسمع واحدًا يطلب منها ان تنزل من المركبة وهي تقول لهُ "الى اين امضي فانني لا استطيع ان امشي ولا اترك مركبتي حتى تأتوني بمركبة اخرى ويجب ان تقاص هؤلاء الرجال الذين كسروا مركبتي"

فقال لها هم يقولون ان الحق على سائق مركبتك. ولكن هذا لا يعنينا واسم مستخدمهم على عربتهم بَرون وشركاؤهُ فطالبيهم بالعطل والضرر اذا لم يكن الحق على سائق مركبتك .ولكن لا يحق لكِ ان تسدّي الطريق بمركبتك فانزلي منها لكي ترفع من الطريق

فقالت والدموع ملأ عينيها كيف العمل واين اذهب . فقال لها تنكرد هوذا مركبتي وهي في خدمتك

فنظرت اليهِ بعينين نجلاوين ولم تستطع ان تخفي دهشتها لانها لم تكن قد رأتهُ قبلما تكلم وقد دُهشت من جمال طلعتهِ ولا سيما لما رأتهُ بين جمهور من رجال الشحنة . وكان الناس المحدقون حولها قد استاءوا من وقاحة سائق مركبتها وخادميها ومن منظر رجل كان راكبًا معها وهو يكلمها باللغة الفرنسوية وينظر الى من حولهُ شزرًا . فلما سمعت تنكرد تنفست الصعداء وشكرتهُ على معروفهِ وتقدّم هو وفتح باب مركبتها فخرجت منها هي والرجل الذي معها وركبا مركبة تنكرد وامر تنكرد سائق مركبتهِ ان يفعل كما تقول لهُ ثم مشي على الرصيف الى ان وصل الى البنك فسأل رجلاً مارًّا هل هذا هو البنك فقال لهُ نعم وماذا تريد فاني ذاهب اليهِ فقال اني لا اريد البنك بل سكوين كورت فهل تعرف اين هو . فقال الرجل نعم واغلنك قاصدًا الصيدوني ثم ارشدهُ اليهِ

الفصل التاسع

دخل تنكرد سكوين كورت فرأى امام الباب مركبة عليها شعار دولة اجنبية ونهض البواب للقائهِ وسألهُ عمَّا يريد فقال اريد ان ارى المسيو ده صيدوني. فقال البواب لا يمكنك ان تراهُ

الآن لانهُ مشغول . فقال تنكرد ولكن معي كتابًا لهُ . فقال البواب اعطني الكتاب لارسلهُ اليهِ وانتظرهُ في هذه الغرفة وفتح لهُ باب غرفة بجانبهِ. فشكرهُ وفضَّل ان ينتظرهُ في الدار. ونظر حولهُ واذا على جدران الدار كثير من صور المشاهير وتمثال رأس من صنع تشتري النحات الشهير وفيها سلَّم كبير من المرمر لا مثيل لهُ في بيوت لندن الحديثة . ثم قال للبواب انني موعود بمقابلتهِ في الساعة الثانية ولما قال ذلك دقت الساعة الثانية من برج كنيسة قديمة بقربِ المنزل ودقت ساعة اخرى في الدار . فاجابهُ البواب قد يكون ذلك صحيحًا ولكنني لا استطيع ان اخبرهُ عنك الآن لان عندهُ سفير اسبانيا وكثيرون غيرك في انتظارهِ فحينما يذهب السفير يُرسَل مكتوبك ومكاتيب غيرك اليهِ . ولما قال ذلك دخل كثيرون ولم يقفوا في الدار بل ظلوا سائرين فقال تنكرد الى اين ذهب هؤلاء . فالتفت البواب اليهِ مستغربًا سؤالهُ عمَّا لا يعنيهِ ثم قال لهُ بعضهم ذاهب الى بيت المحاسبة وبعضهم الى البنك.

وبدت حركة في الدار فنهض البواب وقال لتنكرد ان السفير خارج فلا تقف في طريقهِ ثم فُتح باب في طرف الدار وخرج السفير منهُ وسار البواب والخدم في خدمتهِ الى المركبة ثم عاد البواب وقال لتنكرد " الآن ارسل مكتوبك "

وفي هذا المكتوب الكلام الآتي " عزيزي صيدوني . يصلك هذا الكتاب مع نسيبي منتكيوت الذي اخبرتك عنهُ امس وهو عازم على السياحة الى اورشليم وهذا اوقع والديهِ في حيرة عظيمة لانهُ ولدهما الوحيد ولا اظن الخطر شديدًا كما يتوهمان ولكن ليس احسن من استشارة اهل الخبرة وانت من اخبر الناس باحوال تلك البلاد . وقد وعدتُ والديهِ ان اساعدهُ بكل جهدي فاذا امكنك ان تساعدهُ في شيء فكل ما تصنعهُ معهُ تصنعهُ معي "

اسكدايل

ولما مضى ربع ساعة بعد الساعة الثانية خرج شاب الى الدار وفتح باب غرفة الاستقبال ولما لم يجد احدًا سأل البواب قائلاً اين لورد منتكيوت فلما سمع البواب هذا الاسم انتصب واقفًا وكان يقرأ جريدة التيمس فوضعها من يدهِ لكن لورد منتكيوت تقدَّم الى الشاب لما سمع اسمهُ وحنى لهُ رأسهُ فسار الشاب امامهُ ودخل بهِ غرفة كبيرة لها اربعة شبابيك تطلُّ على الدار الخارجية حيث الحديقة والفسقية وفي ارضها بساط عجمي كبير وعلى كواها ستائر من الحرير الدمشقي وبجانب الجدار المقابل خزائن كبيرة من الحديد وعلى مقربة منها باب من الزجاج يفتح الى غرف اخرى فيها كثيرون من الكتَّاب . وكان في الغرفة الاولى رجل جالس امام مكتبهِ فلما دخل تنكرد وقف ومدَّ لهُ يدهُ واشار الى كرسي بجانبهِ وقال اظنني جعلتك تخرج من دارك

في ساعة لم تعتد الخروج فيها . ثم ادنى كرسيهُ منهُ وقال لهُ ان لورد اسكدابل اخبرني بانك عازم على الذهاب الى اورشليم

تنكرد — نعم هذا هو غرضي

الصيدوني — يا حبذا لو بكرت قليلاً لكي تكون هناك وقت عيد الفصح

تنكرد — يا حبذا ولكن شوقي الى رؤية تلك البلاد شديد جدًّا فاقنع بالوصول اليها في اي وقت وصلت

الصيدوني — صار الوصول اليها سهلاً الآن ولكن الصعوبة في ما يعملهُ الانسان بعد الوصول الى هناك

تنكرد — هي ارض الوحي فاذا وصلتها سالمًا سألت الله ان يرشدني الى ما يجب ان اعمل

الصيدوني — افلا تظن ان الله يسمع لك اذا سألتهُ ذلك وانت هنا

تنكرد — هذه الارض ليست ارض الوحي وللوحي مواطن لا يكون في غيرها

الصيدوني — احسنتَ فانا اعتقد ان الله كلم موسى على جبل مواب وانت تعتقد ان المسيح صُلب على جبل الجلجلة وكلاهما من بني اسرائيل . والانبياء والرسل عندنا وعندكم منهم ومقامهم كلهم في تلك الارض

تنكرد — نعم ولما رأيتُ فوضى الاديان في هذه البلاد ولم أرَ احدًا يرشدني الى طريق الحق عزمت ان اقتفي خطوات واحد من اسلافي واعبر البحر وازور الارض المقدسة

الصيدوني — ولقتفي خطوات الصليبيين . ولقد كان للصليبيين شأن كبير لانهم اضرموا نار الغيرة الدينية التي كانت قد خمدت في اسيا . وقد عادت الى الخمود الآن ولكنهُ الخمود الذي يسبق الاضطرام

تنكرد — ولا بدَّ من ذلك لانهُ لا يعقل ان بلادًا طهَّرها الله تكون مثل غيرها من البلدان فلا بدَّ من ان يكون فيها مزية على غيرها . وسأسأل تلك الجبال التي كانت الملائكة تنزل عليها لماذا انقطعتْ عن زيارتها . واطلب من المعزّي الموعود ان يأتي و يعزيني لاني لم اجدهُ في هذه البلاد ولا اظن ان احدًا وجدهُ فيها ولذلك احسبُ انهُ لا يوجد الاَّ في بلاد المشرق في الارض المقدسة وقد شاءت العناية الالهية ان تكون الطريق اليها محفوفة بالمشاق حتى يعظم بتجشمها الاجر والثواب

فاصغى الصيدوني الى كلام تنكرد وكان تنكرد جالسًا امام الشباك والنور واقع على وجههِ فتبدو ملامحهُ كلها . ورأى فيهِ دلائل المهابة والوقار والتقوى . وعلم من مرآهُ انهُ على بساطتهِ

وجهلهِ امور العالم في نفسهِ من القوى الخفية ما سيجعلهُ المحل الارفع بين الانام. ولما اتمَّ كلامهُ صمت الصيدوني قليلاً ثم قال يظهر لي ايها اللورد انك تريد ان تستجلي غوامض المشرق

فقال تنكرد نعم لقد اصبت غرضي . وحينئذٍ دخل الشاب الذي ادخل تنكرد واتى الصيدوني بكتاب فاسف تنكرد لان الرجل مشغول ولا يستطيع ان يقيم عندهُ طويلاً ونهض وهمَّ بالانصراف فاشار اليهِ بيدهِ ليبقى جالساً من غير ان يرفع نظرهُ من الكتاب . ثم قال لهُ لقد اخبرت لورد اسكدايل انهُ اذا بدا امر يشغلني عنك قليلاً فانت تعذرني وتنتظرني الى ان اقضيهُ فتفضَّل بالبقاء الاَّ اذا كنت مشغولاً فجلس تنكرد في مكانهِ وقال الصيدوني مخاطباً الكاتب

اكتب ان المكاتيب تتأخر ١٢ ساعة عن الرسائل الخصوصية وان المدينة في هدوء واترك خلاصة مكتوب برلين على الخزانة . السندات في نزول والاسهم في صعود . ثم التفت الى تنكرد وقال لهُ . متى تحسب انك تستطيع السفر

تنكرد — بعد اسبوع

الصيدوني — حينما تصل الى اورشليم لا بدَّ من ان تزور دير الافرنج ترًا صنطا وتلاقي هناك رئيس الدير الوزتو لارا وهو اسباني الاصل بارع في علوم المتقدمين والمتأخرين وذلك لازم لفهم الحقائق الدينية وهو على اتم المعرفة باحوال فلسطين لانهُ استوطنها منذ خمس وعشرين سنة فثق بهِ واعتمد عليهِ وستحتاج الى انانس غيرهُ ولكن حاجتك اليهِ ماسة جدًّا

اما من جهة النقود ففي بلاد الشام صيرفي واحد وهو في حلب ودمشق وبيروت واورشليم واسمهُ بشُّو وقد كانت لهُ الكلمة النافذة في بلاد الشام قبل خروج ابرهيم باشا بالعساكر المصرية منها . ولم تزل سطوتهُ قوية . وساعطيك كتابًا اليهِ واريد ان تتعرف بهِ وهو عائش عيشة الملوك في دمشق وعيشة الاواسط في اورشليم . نعم اريد ان تتعرَّف بهِ وستسرُّ بمعرفتهِ جدًّا وتجد في بيتهِ افضل الرجال واذكاهم فؤادًا . وهو قادر ان يساعدك في كل شيء فاعتمد عليهِ في كل الامور وهو طوع امري . هذان الكتابان كتاب الى لارا وكتاب الى بشو يفتحان لك كل مُغلَق في بلاد الشام فاذهب اليهما ولا تهتم بشيء آخر

فوقف تنكرد وهو يقول كيف اقوم بالشكر الواجب لك على ما اوليتني من الجميل. فقال لهُ الصيدوني انا لا اخرج من بيتي وغدًا انتظر اثنين او ثلاثة للغداء عندي وهم من الذين تحب ان تراهم فهل تتفضَّل وتتغدَّى معهم .

فقال تنكرد اني اقبل ذلك بالشكر الجزيل . وافترقا ثم عاد سيف اليوم التالي فادخل الى

غرفة من المرمر ومنها الى غرفة أُخرى فيها شباك كبير عليهِ ستار من المخمل البنفسجي اللونِ واسامهُ رواق فيهِ كثير من أُصص الازهار وفي ارضها بساط كبير لونهُ يضاهي لون السقف والجدران ونقشهُ يوافق نقشها وفيها كثير من الكراسي الفاخرة ومائدة مرصعة بالعاج عليها جرس من الفضة كان لاحد الباباوات وتمثال في يدهِ بوق من الذهب يستعمل دواة وكتب فرنسوية حديثة وكؤوس مستخرجة من المدافن المصرية . وفوقها صورة احد الوزراء وتمثال رأس امبراطوري في هذه الغرفة قابل الصيدوني تنكرد وعرَّفهُ بضيف اتى قبلهُ وهو اللورد هنري سدني . ولما ذكر اسمهُ اضطرب قلب تنكرد كما يضطرب قلب كل شاب انكليزي لان الرجل كان قد اشتهر شهرة فائقة حتى علقت بهِ آمال الملايين من ابناء وطنهِ . اشتهر في سنوات اربع خدم فيها بلادهُ وامتدَّ خدمة ينوء تحتها اعاظم الرجال . فكان يحضر مجلس النواب يوماً بعد يوم من غير انقطاع ويقودهُ للبحث في المسائل العمومية الهامة . ويشترك في المناظرات والمناقشات حتى يكون لهُ النصيب الاوفر منها . ويكتب كثيراً في تلك المواضيع وغرضهُ من ذلك كلهِ اسمى الاغراض وانبلها . غرضهُ من المناقشات في مجلس النواب والمذكرات في لجانهِ والمقالات في الجرائد السياسية والمجلات الادبية انما هو ترقية شأن وطنهِ وامتهِ . ولم يكن مثل كثيرين من محبي اوطانهم الذين تقتصر محبتهم على تنبيه الناس الى ادوائهم بل كان يبذل جهدهُ في ايجاد الدواء الشافي لتلك الادواء

وكان عالماً خبيراً عارفاً باخبار البلدان وطبائع الناس وبأن ما يعتري الامم من النوائب انما هو نتيجة المبادىء التي بني عليها نظام بلادهم ولذلك لم يكتفِ بالمباحث السطحية بل تعمق الى اصول العمران وبحث عما يصلح ان يكون دواء لتلك الادواء . وكان كثير الدرس والبحث على ما بهِ من الذكاء وتوقد القريحة لا يملُّ من الشغل ولا يتسرَّع في الاعمال مع علو همتهِ وشدَّة عزيمتهِ ولا يتصلب في رأيهِ ولو كان اصيلاً الاَّ اذا علم انهُ الرأي الوحيد السديد فحينئذٍ يتشبث بهِ الى حدِّ العناد . وكان قوي العارضة في الخطابة فصيح العبارة سلس الانشاء في الكتابة لين العريكة قادراً على اصطناع الاصدقاء وقيادتهم . أضف الى ذلك انهُ كان كريم الحسب والنسب جميل الطلعة معتدلاً في كل امورهِ

التفت الى تنكرد وقال لهُ بصوت تمازجهُ الرقة والهشاشة . متى تمضي الى الارض المقدسة . فقال تنكرد انا مستعد للسفر الآن ولكن رفاقي لم يحضروا

لورد سدني — اني احسدك على هذه السياحة

تنكرد — لماذا تتأخر عنها اذاً

لورد سدني — مضى الوقت فقد شرعت في عملي ولا يمكنني ان اتركه

تنكرد — اذا استطاع رجال السياسة ان ينقذوا هذه البلاد بسياستهم فنعما تفعل . وقد راقبت اعمالك واعمال انصارك فوجدت ان البارلمنت لا يصلح لرجال الاعمال وقد كان لازما في القرن الثامن عشر لما لم يكن للناس سبيل آخر للشهرة . والآن لا نرى له شأنا في احوال الامة لانه اذا اراد التجار تغيير شيء اعتصبوا كلهم وغيروه رغما عنه

لورد سدني — يا حبذا لو امكنني ان اقنعك لتعدل عن السفر وتبقى معنا لتساعدنا في عملنا

وطال الحديث على هذا النمط وحضر سائر المدعوين وهم نخبة من كرام الانام . ثم دخل الخادم وقال — حضر الطعام فامسك الصيدوني بيد لادي مارني وسار وراءهما بقية المدعوين على اختلاف رتبهم رجالا ونساء ساروا في رواق من الرخام الى غرفة المائدة وهي في اثاثها وزياشها مثل غرفة المكتبة التي تقدم وصفها يأكل فيها الصيدوني مع اخصائه اما الولائم الكبيرة فيولمها في غرفة اخرى اكبر منها واغر . وتكون آنية الطعام حينئذ من الفضة والذهب اما الآن فكانت من خزف سفر المشهور وهي قائمة على قوائم مذهبة والمالح تحملها تماثيل صغيرة من عرائس البحر او حيوانات مختلفة الانواع وهي في شكل اصداف او عشاش او ما اشبه وكان في وسط المائدة تماثيل خدم من الخزف الصيني المصنوع في درسدن من اجمل ما صنعة الصناع

ولما جلسوا حول المائدة اسرّ لورد سدني في اذن جارته كونسباي قائلا كنت اتكلم الآن مع لورد منتكيوت فوجدته على غاية الذكاء لم تتدمث اخلاقه ولكنها من الطبقة الاولى حدثه بعد الطعام ولا تدعه يفلت من يدنا

كونسباي — يقال انه ذاهب الى اورشليم

لورد سدني — نعم ولكنه يرجع منها

كونسباي — ما ادرانا انه يرجع فان بونابرت نفسه اسف لانه عاد من تلك البلاد. ولا اوسع من المشرق مجالا لرجال الهمم

وكان بين المدعوين الشاعر فلسور وهو من الفلاسفة المشهورين فدار الحديث بينه وبين تنكرد على الراي العام وحقيقة العمران . قال فلسور ان العمران كان في العصور الغابرة ارقى منه الآن وكان مئتا مليون من البشر خاضعين للرومان وللقوانين الرومانية التي اضطررنا ان نجري عليها في هذا العصر وعائشين بالسلام والامن . وكانت طرق المواصلات عندهم اتقن مما هي عندنا فكان الانسان في عصرهم يسير من باريس الى انطاكية باسهل مما نسير الآن من

مدينة لندن الى مدينة يورك . وكانت المدائن في مملكة الرومان اعظم مما هي الآن بكثير

ثم انتقل الحديث الى سبب انحطاط الممالك وانقراض الامم واشار لورد صدني الى عجز اسبانيا عن التسلط على بلاد المكسيك مع انها هي التي فتحتها وقال فياسور ان الامة الاسبانية باقية على حالها فعلى م لم تعد تستطيع جزءا مما كانت تستطيعهُ بالامس فقال الصيدوني لانها ادركتها الشيخوخة والامم تشيخ كالافراد ما لم تكن القفاريو يبقى دمها سليماً من الامتزاج بدماء غيرها. وبمثل هذا الحديث قضي الوقت بين لون وآخر من الوان الطعام وكان النساء يشاركن الرجال في كل المباحث ولو كانت سياسية فلسفية

الفصل العاشر

لما عاد تنكرد من زيارة الصيدوني في المرة الاولى وجد في بيتهِ بطاقة يقال فيها "ان لادي برتي ترجو مركبة لورد منتكيوث بما لا مزيد عليهِ من الشكر. وتخشى ان تكون قد اتعبتهُ كثيرًا ولكنها تؤكد لهُ اعترافها بفضلهِ عليها"

وكانت هذه السيدة من نخبة اشراف الانكليز كما علم من اسمها ابنة دوق وزوجة لورد فاستغرب كيف انهُ لم يرها قبلاً لكنهُ لم يبالِ بذلك وكاد ينسى ما جرى لهُ في الصباح لان كلام الصيدوني وافق اميالهُ ونزع من نفسهِ كل ريب في صحة مقاصدهِ فاتضح لهُ ان لورد اسكدايل والمطران مخطئان في فهم مرادهِ ولو كان الاول منهما خبيرًا بامور العالم والثاني من كبار العلماء ورجال السياسة وقال في نفسهِ ان الصيدوني اخبر من الاول واعلم من الثاني ومع ذلك لم يستغرب آرائي بل استحسنها وشدَّد عزائمي

وكان مدعوًّا تلك الليلة الى بالموعند لادي باردلف فلم يكد يدخل دارها حتى وقعت عينهُ على السيدة التي رآها في الصباح اي لادي برتي فنظرت اليهِ بعينيها الفيلاوين وتبسمت واحنت رأسها فاقترب منها حالاً فحيتهُ قائلةً ها قد اجتمعنا اليوم مرَّةً اخرى . فقال لها كيف اننا لم نلتقِ قبل الآن . فقالت قد عدت حديثًا من باريس وهذه اول مرةٍ خرجت فيها الى سهرة ولولاك ما كنتُ هنا الليلة بل ربما كنت في السجن. فقال اذًا يجب ان تشكرني لادي باردلف (صاحبة الدعوة) على ذلك بل يجب ان يشكرني العالم كلهُ . فقالت وانا في الجملة . فقال هذا حسبي وهو يعادل كل شكران. فقالت ما اجمل مركبتك وما عدت احب ان اركب في مركبة دونها . فقال لماذا لم تبقيها عندكِ اذًا . فقالت احسنتَ واجملت هذا كرم حاتمي يعرفهُ اهل المشرق ولا نعرفهُ نحن في هذه البلاد الباردة ولقد صدق من قال ان شبيه الشيء

فجذب اليهِ فقد اخبرني لورد فالنتين الآن انك ذاهب الى بلاد المشرق فما اسرع ما انت مفارقنا

فقال نعم مرادي الذهاب باسرع ما يمكن

فقالت أصحيح ذلك وصمتت قليلاً وقد بدت عليها امارات انكسار البال ثم قالت يا حبذا لو لم تأتِ لمساعدتي هذا الصباح . فقال ولماذا . فقالت لاني لا احب ان اتعرّف بأُناس اسرُّ بمعرفتهم ثم افارقهم سريعاً . فقال انا اذًا احق بالاسف منكِ . فقالت اراك سئمتَ العالم قبل ان تعرفهُ . فقال اني لم اسأمهُ لاني لم اعرفهُ حتى الآن كما تقولين وما مجيئي الى هنا الاَّ من باب الاتفاق كما اتفق وجودك في ذلك الشارع الضيق في الصباح . فقالت ان لورد فالنتين اخبرني الآن انك ذاهب لاجل ما طالما تمنيتهُ فلم انلهُ . فقال أوَ انتِ ايضاً شعرتِ بالحاجة الى ذلك . فقالت نعم ولا ابرئُ نفسي من ذنبي في عدم اصراري على الذهاب ولكن فاتت الفرصة الآن وقد كان الواجب عليَّ ان احمل عصاي مثل السيّاح الاقدمين واقصد تلك الارض المقدسة ولا استريح حتى تطأ قدمي رمال يافا

فقال هذا هو الصواب ويجب علينا كلنا ان نسيح هذه السياحة . فقالت ومع ذلك لايذهب احد منا بل نبقى في اماكننا نتأوّه ونتحسر فقال لاننا وُلدنا في زمن لا يهتمُّ الناس فيهِ الاَّ بالدنيا . فقالت اما انا فلا تهمني هذه الحطام الفانية ولا تتوق نفسي الاَّ الى الامور الروحية . فقال لان لكلٍ نفساً معوبة والذين مثلك قلائل في القرن التاسع عشر لان حب الدنيا اعمى العيون والكل مشغول بها عن الاخرى . فقالت اصبت ولذلك ازمعتُ السفر عنا وانا ادرك مقاصدك لاني كنتُ مثلك كانت نفسي تحنُّ الى اورشليم وكنت اتمنى الوصول الى تلك الربوع ولكن لم تسمح لي التقادير ان اتخطى مدينة باريس

فقال لها ان السفر صار سهلاً الآن ولم تبقَ صعوبة الاَّ في ايجاد عمل يعملهُ الانسان بعد الوصول الى هناك كما قال لي اكبر ثقة اليوم . فقالت ومن هو هذا الثقة . قال هو الرجل الذي كنتُ ذاهباً لزيارتهِ هذا الصباح لما التقيتُ بكِ المسيو ده صيدوني . فقالت وهل تعرف المسيو ده صيدوني . فقال اعرفهُ اقل مما احبُّ وهذا اول يوم رأيتهُ فيهِ ذهبت اليهِ بوصية من لورد اسكدايل لانهُ خبير بامور السفر . فقالت اني اود جدًّا ان التقي بهذا الرجل ولا بدَّ من ان اطلب من لورد اسكدايل ان يدعوهُ ويدعوني يوماً ما للعشاء عندهُ . فقال بلغني انهُ لا يخرج للدعوات الآن . فقالت كان يخرج كثيرًا وكان يولم الولائم الفاخرة ولا بدَّ من ان نثني عليهِ العود الى عادتهِ الاولى فانهُ غنيٌّ غنىً مفرطاً . فقال هذا الذي يظهر لي وانا استغرب

كيف يهتم رجل بجمع المال وهو في درجته من العلم والفضل . فقالت هذا نصيبهُ ولا يستطيع التخلص من الاموال كما لا يستطيع الملك أن يتخلص من مهام الملك . ولا ادري هل اخذ سكة الحديد الشمالية فانهُ لا حديث الآن في باريس الاَّ بها . فقال بماذا . قالت اليك عن ذلك وعُدْ بنا الى الكلام عن اورشليم . ثم التفتت وقالت هوذا زوجي دعني اعرفك بهِ . وكان تنكرد يحب ان زوجها الرجل الذي رآهُ معها في الصباح فاذا هو غيرهُ وهو طويل القامة نحيف الجسم فشكر تنكرد على تقديمهِ المركبة لزوجتهِ في الصباح ثم دعاهُ للعشاء في اليوم التالي فاجاب انهُ مدعوٌّ الى مكان آخر ولكنهُ وعد بان يزور لادي برقي قريبًا ويشاهد بعض الصور التي صوَّرتها للارض المقدسة

ومضى اسبوع وهو يزورها كل يوم فوجد انها الشخص الوحيد الذي يهوِّن رأيهُ ويحدثهُ عن الارض المقدسة وكانت تحبُّ سفر البحر وتعرف شيئًا من امر السفن فتشير عليهِ بما تراهُ صالحًا فيتبع شورها في اصلاح يختهِ . وكانت قد قرأت كتبًا كثيرة عن فلسطين وجمعت عددًا واقرًا من صورها فكانت تريهِ الصور وتشرحها لهُ وتخبرهُ بما قرأتهُ عنها وودَّت غير مرة ان يؤخر سفرهُ لعلها تستطيع السياحة معهُ لان زوجها مغرم بالصيد ويخطر لهُ احيانًا ان يزور بلاد الشام ويحاول صيد الخنزير البري من قفارها . وكادت بهذا الكلام وامثالهِ تثني عزمهُ عن السفر . واتَّفق انهُ زارها ذات يوم فرآها في حالة الاضطراب الشديد ولما جلس اليها سمعها تتنهَّد من كبد حرَّى فسألها ما الخبر فقالت انها على غير ما تحب وانها آسفة لان سفرهُ صار قريبًا . فطلب اليها ان تسافر معهُ فقالت ان ذلك ضرب من المحال لان زوجها لا يستطيع ان يفارق لندن اكثر من ستة اسابيع ولو وُجدت سكة حديدية الى اورشليم لكان الامر ممكنًا . ثم التفتت اليهِ وقالت لهُ اذهب على الطائر الميمون فقد كنتُ امني نفسي بالمحال كنتُ احسب انني استطيع السياحة معك ثم غطَّت وجهها بيديها وكأنها تحاول اخفاء غمها

فوقف وصار يمشي في الغرفة ذهابًا وايابًا وكاد فؤادهُ ينفطر وقال لها لا ادري لماذا ارى التقادير تصدني عن عزمي ايتها العزيزة . ولما قال ذلك اضطربت وقالت لهُ اياك وكلام التحبُّب والتودُّد واصفح عمَّا مضى وثق انني مسرورة جدًّا بالغرض الذي انت ذاهب لاجلهِ فلا اريد ان تؤخر سفرك يومًا واحدًا لاجلي . اذهب على الطائر الميمون اما انا فقد سئمت الحياة . ولما قالت ذلك دخل خادم وبيدهِ كتاب فنظرت اليهِ وفضتهُ وحالما وقع نظرها على ما فيهِ صرخت صرخة عظيمة وأُغمي عليها فبادر اليها تنكرد وكان الكتاب مفتوحًا امامها وفيهِ سطران يقال فيهما

"سبقت المركبة الضيقة. خبرنا بلغني انك اشتريت خمس مئة سهم ايضاً فهل ذلك صحيح"

فلما قرأها قال في نفسهِ اذاً هي مشتغلة بالمراهنة والمضاربة وهي مضطربة بسبب ما لحقها من الخسارة. ما اغرب هذه الدنيا وسكانها. ونادى خادمتها اليها واسرع من بيتها الى بيت الصيدوني فرأى عندهُ الرجل الذي رآهُ معها لما رآها اول مرة فسألهُ عنهُ فقال لهُ انهُ رجل مالي فرنسوي جاء في لكي اساعدهُ في انشاء سكة حديد جديدة من باريس الى ستراسبرج وانا اعرفهُ منذ سنين كثيرة وكان صديقاً للورد منوث فترك لهُ ثلاثين الف جنيه فظهر بها في باريس كأنهُ صاحب ملايين كثيرة وهو من كبار المضاربين. فقال تنكرد قد انجلى لي الامر الآن ثم سألهُ عن لادي برتي فاخبرهُ انها اكبر مقامرة في اوربا وانها التهُ يوم زارهُ اول مرة مع هذا الرجل وبقيت ساعة على بابهِ تطلب مقابلتهُ فلم يقابلها لانهُ لا يريد ان تكون لهُ اقل علاقة بامرأة مقامرة. ثم قال انهُ يعلم جيداً انها على شفا الافلاس كما يضطر ان يعلم حال كل انسان من المشتغلين بالاشغال المالية

فقال تنكرد قد اضعتُ وقتك بهذا الحديث مع اني اتيت لاخبرك اني مسافر غداً وانتظر اتمام وعدك من حيث مكاتيب التوصية

فاخذ الصيدوني القلم وكتب بالاسبانية الى الونزو لارا رئيس دير ترّا صنطا في القدس الشريف ما ترجمتهُ

ايها الاب الجزيل الاحترام

الشاب الذي يسلمك كتابي هذا سائح يطلب استجلاء غوامض المشرق فعاملهُ كما عاملتني ولتحفظك اله آبائنا ويفجح اعمالك"

وكتب الى ادم بسو بالسبرانية ما ترجمتهُ

عزيزي آدم

اذا احتاج الفتى الذي يبدو هذا الكتاب الى النقود فاعطهِ من الذهب ما يكفي لعمل اسود مثل الاسود التي كانت على عرش سليمان والمطالب بذلك كلهِ ابن اسرائيل الذي يسميهِ الامم صيدوني

(المقتطف) قد اضطررنا ان نختصر كثيراً في الفصول السابقة وندمج بعضها في بعض اذ الغرض الاكبر ليس بها ولكن بالفصول التالية التي توصف فيها احوال بلاد الشام كما كانت منذ خمسين عاماً وسترد في الجزء التالي وما يليهِ